المبحث الثالث

دور الوقف في التنمية الاجتماعية والرعاية الصحية

لقد استطاع الوقف - على مر العصور - أن يحفظ الهوية - المتميزة للمجتمع الإسلامي، فأمسك عليه كيانه من الداخل بما يحققه من تكافل اجتماعى، وأمسك عليه كيانه من الخارج في مواجهة غارات العدوان والدمار.

ومما لا ريب فيه أن الوقف كان له دوره المتميز في تغطية جانب كبير من جوانب المتطلبات الاجتماعية، وفى سد الثغرات الاقتصادية لفئات عديدة من أفراد المجتمع.

فالوقف على المحرومين من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل يغل في نفوسهم الحقد والحسد، ويبعث في قلوبهم المودة، ويدفع سواعدهم إلى المشاركة في بناء المجتمع المسلم الذى لم يضن عليهم بالرعاية بلا طلب أو استجداء، وإنما يقدم لهم عوائد الأموال الموقوفة عليهم لتحقيق الحياة الكريمة لهم.

ومن هنا تبرز أهمية الوقف الخيرى الذي يداوي، ويواسي، ويعاون، ويدافع عن قيم المجتمع، ويحمي بنيانه الاجتماعي من جميع الغوائل، من خلال الاهتمام بحاجات الفرد والأسرة، لأنهما اللبنة الأولى في بناء المجتمع[1].

---

(١) الوقف وأثره على الناحيتين الاجتماعية والثقافية - ص١٥٠ (بتصرف).

وقد حقق الوقف هذا الدور الاجتماعي بجدارة في الماضي وعلى مر العصور، وذلك من خلال رعاية الفقراء والمساكين واليتامى والأرامل والعجزة والمعوزين.

وما لا ريب فيه أن الفقراء والمساكين تنحصر حاجاتهم الأساسية في المأكل والملبس والمسكن، ويهتم الكثير من أهل الخير بوقف جزء من ثرواتهم للمشاركة في توفير هذه الحاجات للفقراء والمساكين. ولا ريب أن الإسهام في توفير الحاجات الأساسية لهم سوف يعنى تحويل المزيد من الموارد إليهم، وهذا يؤدى إلى رفع مستوى معيشتهم وتقليل الهوة بينهم وبين الأغنياء إلى حد ما.

كما أن الأوقاف على جهات الخير تساعد في توفير حد أدنى من الحياة الكريمة للفقراء والمساكين، وذلك بتوفير فرص العمل المناسب لهم ومن ثم زيادة دخولهم والرفع من مستوى معيشتهم وحياتهم الاجتماعية[١].

ومن أهم المجالات الاجتماعية التى مارسها الوقف رعاية للفقراء والمساكين هو الإعانة على تأدية العبادات.

فقد قام كثير من الواقفين بتخصيص بعض الأعيان وحبسها للإنفاق من عوائدها لإعانة الفقراء والمساكين على تأدية العبادات المفروضة كالصيام والحج، وذلك بإعداد موائد للإفطار والسحور، ليست كالموائد التى يقيمها البعض في زماننا للخيلاء أو الرياء والسمعة، وإنما ينفق على هذه الموائد من أموال الوقف المخصصة لها لتمكين الفقراء من أداء العبادة بلا مشقة.

كما أن بعض الواقفين يخصص بعض الأعيان لإعانة راغبى تأدية فريضة

---

(١) الوقف والتنمية البشرية - د. إسماعيل عبد الرحيم شلبى - ضمن البحوث المقدمة لندوة «احياء دور الوقف في الدول الإسلامية» ص١٢ (بتصرف).

الحج من الفقراء والمساكين، بمدهم بالمئونة التى تعينهم على تحقيق بغيتهم في تأدية هذه الفريضة التى تحتاج إلى المال والزاد والراحلة[١].

كما خصصت بعض الأوقاف لمساعدة الشباب والفتيات الفقراء على الزواج، وذلك بمنحهم المهور اللازمة والإسهام في تزويجهم، وإمداد العروس بالأثاث والثياب والحلى وما تحتاج إليه من ضرورات الحياة، لتكوين أسرة سعيدة.

وقد ذكر الرحالة ابن بطوطة أنه وجد وقفاً بالشام لتزويج البنات الفقيرات اللواتى لا قدرة لأهلهن على تزويجهن، كما ذكر أن هناك وقفاً مماثلاً خصص لتزويج البنات الفقيرات بتونس. وفى مدينة فاس بالمغرب، كانت هناك دار لتزويج الضعفاء والمعوزين، الذين لا يملكون سكناً لإقامة مراسم الزفاف[٢].

هذا وقد اتخذت المؤسسات الوقفية - التى تنهض بتقديم الرعاية الاجتماعية والصحية - عدة أشكال أهمها: الملاجىء والتكايا والبيمارستانات.

أولاً: الملاجىء[٣]:

الملجأ باعتباره مؤسسة للرعاية الاجتماعية هو شكل متطور للرباط الذى كان من المؤسسات الوقفية المبتكرة منذ العصر الأيوبى على الأقل، حيث كان الرباط يقوم بوظائف متعددة منها وظيفة الملجأ في الوقف الحالى، وقد استمر اسم الرباط مستعملاً لدى مؤسسى الأوقاف في مصر حتى مطلع القرن العشرين كمرادف للملجأ.

---

(١) الوقف وأثره على الناحيتين الاجتماعية والثقافية، ص١٥٦، ١٥٧ (بتصرف).
(٢) رحلة ابن بطوطة - دار صادر بيروت ١٩٦٤م.
(٣) الأوقاف والسياسة - ص٢٧٢ (بتصرف).

وإذا رجعنا إلى حجج الأوقاف الخاصة ببعض الملاجىء نجد أنها تتضمن الكثير من الشروط التى وضعها الواقف لتنظيم أعمال الرعاية لنزلاء الملجأ، سواء أكانوا من اليتامى أم من الرجال أم من النساء، بما في ذلك مقادير الطعام الذى يقدم لهم، وما يحصل عليه كل نزيل من إعانة نقدية شهرياً، وملابس للصيف وأخرى للشتاء.

هذا بالإضافة إلى تفاصيل أخرى تتعلق بإدارة الملجأ، وشروط الالتحاق به، وكذلك شروط الاستمرار فيه.

وبغض النظر عن مضمون تلك التفاصيل، فإن المعنى الذى تشير إليه - ونؤكد عليه هنا - هو مبلغ ما وصل إليه اهتمام الواقف بتدبير شؤون أولئك الذين لم يعد باستطاعتهم تدبير أو سياسة شؤون أنفسهم، وليس لهم من يعولهم أو يقوم برعايتهم.

ثانياً: التكايا[1]:

اختصت التكايا - في معظم الأحوال - برعاية من لا عائل لهم، والذين لا يقدرون على الكسب من العجزة وكبار السن، والأرامل من النساء اللائى لا يستطعن ضرباً في الأرض، إلى جانب الغرباء والمسافرين الذين لا يجدون لهم مأوى في البلاد التى يمرون بها، وخاصة إذا كانوا قاصدين بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج. وبعض التكايا كان مخصصاً لإسكان طلبة العلم، ومن اشهرها تكية محمد بك أبو الدهب، وتكية الكلشنى بالقاهرة - وكانتا مخصصتين لإسكان بعض طلبة العلم الأغراب الذين يدرسون بالأزهر الشريف.

ومن أشهر التكايا أيضاً تكيتا مكة المكرمة والمدينة المنورة اللتان

---

(١) المرجع السابق، ص٢٦٧ ومابعدها (بتصرف).

أنشأهما محمد على وأوقف عليهما قريتين كاملتين بمصر بلغت مساحتهما ٢٨٧٧ فداناً ليصرف ريعها على هاتين التكيتين لتسهيل أداء فريضة الحج على حجاج بيت الله الحرام.

وعلى أية حال فإن التكايا لم تجتذب وقفيات جديدة ذات شأن، على عكس الملاجىء التى كانت وما زالت آخذة في الازدياد، والحلول محل التكايا باعتبارها مؤسسة للرعاية الاجتماعية أكثر كفاءة وتنظيماً من التكايا.

ثالثاً: البيمارستانات[١]:

وهى إحدى المنشآت والمؤسسات الوقفية التى كان يشيدها السلاطين والملوك والأمراء وأهل الخير على العموم صدقة وحسبة وخدمة للإنسانية، ولم تكن مهمة هذه البيمارستانات قاصرة على مداواة المرضى، بل كانت في الوقت نفسه معاهد لتعليم الطب[٢].

وأول دار أسست لمداواة المرضى في الدولة الإسلامية بناها الخليفة الأموى الوليد ابن عبد الملك في دمشق سنة ٨٨هـ، وجعل فيها الأطباء، وأجرى عليهم الأرزاق، وخصص لكل مُقعد خادماً يهتم بأمره، ولكل ضرير قائداً يسهر على رفقته[٣].

وبنى أحمد بن طولون سنة ٢٥٩هـ أول بيمارستان كبير في مصر، وقد أنفق ابن طولون على إنشاء هذا البيمارستان ستين ألف دينار، وكان يركب بنفسه في كل يوم جمعة ليتفقد أحوال المرضى[٤].

---

(١) بيمارستانات: إسم يطلق على دور العلاج (المشافى) وهو لفظ فارسي انتقل إلى العربية.

(٢) الرعاية الاجتماعية فى الإسلام وتطبيقاتها فى المملكة العربية السعودية، للمؤلف ط١٤١٩هـ/ ص١٣٩.

(٣، ٤) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار للمقريزى ط بولاق ٢/ ٤٠٥.

كما شيد نور الدين زنكى بيمارستانا في دمشق قال عنه الرحالة ابن جبير إنه: «مفخرة عظمية من مفاخر الإسلام، وله قوم بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى، وعلى النفقات التى يحتاجون إليها من الأدوية والأغذية وغير ذلك، والأطباء يبكرون إليه في كل يوم ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية».

ويضيف ابن كثير أن نور الدين زنكى وقف هذا البيمارستان على الفقراء دون الأغنياء اللَّهم إلا إذا لم يجد الأغنياء دواء لعللهم إلا في هذا البيمارستان، مما يؤكد الأهمية الاجتماعية لمثل هذه المؤسسة[١].

وهناك المستشفى المنصورى الكبير، المعروف بمارستان قلاوون، الذى أنشأه الملك المنصور سيف الدين قلاوون بالقاهرة سنة ٦٨٣هـ، وأوقف عليه ما يغل ألف درهم في كل سنة، وألحق به مسجداً ومدرسة ومكتباً للأيتام. وكان آية من آيات الدنيا في التنظيم والترتيب، جعل الدخول إليه والانتفاع به مباحاً لجميع الناس، وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة، ومن مات جُهِّز وكُفِّن ودُفن.

وعين فيه الأطباء من مختلف فروع الطب، كما وظف له الفراشين والخدم لخدمة المرضى وإصلاح أماكنهم وتنظيفها وغسل ثيابهم.

ومن أروع ما فيه أن الاستفادة منه ليست مقصورة على من يقيم فيه من المرضى، بل رتب لمن يطلب وهو في منزله ما يحتاج إليه من الأشربة والأغذية والأدوية[٢].

---

(١) دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرين ط الكويت ص٢٩٥.

(٢) من روائع حضارتنا، ص ٢٢٩، ٢٣٠ (بتصرف).

وهناك المستشفى العضدى الذى بناه عضد الدولة بن بويه عام ٣٧١هـ في بغداد، حيث أنفق عليه مالاً عظيماً، وجمع له من الأطباء أربعة وعشرين طبيباً، وألحق به كل ما يحتاج إليه من مكتبة علمية وصيدلية ومطابخ ومخازن[١].

وهناك البيمارستان الذى بناه يعقوب المنصور بمراكش بالمغرب، فقد أقيم في أفضل ساحة في البلد، ورتبت بالمارستان كل احتياجات المرضى من أطباء وصيادلة وأدوية وأغذية وملابس وغير ذلك.

وهكذا انتشرت البيمارستانات في أغلب المدن الإسلامية، وكان لها دور كبير في الرعاية الصحية والاجتماعية للأفراد في المجتمعات الإسلامية ولا سيما الفقراء منهم والمحتاجين.

وتجدر الإشارة إلى أنه كان يوجد بكل مستشفى قاعة كبيرة للمحاضرات، يجلس فيها كبير الأطباء ومعه الأطباء والطلاب يعلمهم أصول الطب وعلاج المرضى. كما كان «يلحق بكل مستشفى مكتبة عامرة بكتب الطب وغيرها مما يحتاجه الأطباء وتلاميذهم، حتى قالوا: إنه كان في مستشفي ابن طولون بالقاهرة خزانة كتب تحتوى على أكثر من مائة ألف مجلد في سائر العلوم»[٢].

* دور الوقف في تحسين المستوى الاجتماعى والمعيشي:

إن وقف الأموال على نشر التعليم فتح مجالاً للشباب أن يرتقوا ويتميزوا في السلم الاجتماعى، وفى التأثير والنفوذ حتى لو كانت أصولهم الاقتصادية

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٢٦، ٢٢٧ (بتصرف).
(٢) المرجع السابق، ص ٢٢٥.

والاجتماعية ضعيفة نتيجة ما أتاحته لهم أموال الوقف المخصصة للتعليم من مجالات. . . فالتعليم الجيد الذى قد يحمله شخص موهوب قد ينقله ليس لأن يتسلم مرتبة الإفتاء والقضاء فحسب، بل لأن يتمرس في العمل الإدارى وتيسير أمور الدولة، أو في أى مهنة متخصصة كالطب والإدارة أو غيرها، والتى قد لا تتاح له لولا أموالاً موقوفة قد ساعدته على هذا الارتقاء، وسهلت له سبيل التعليم والرقى[١].

لقد أدت الطبقة المتعلمة دوراً رئيساً في انتقال المعرفة والمعلومات الإنسانية والعلمية والأخلاقية والقيم الدينية، حيث نقلوها لمختلف أبناء الأمة الإسلامية، وأتيح لكل فرد من أفراد المجتمع الإسلامى الفرصة على أن يكون عضواً فعالاً في هذه الفئة التى اتصفت بالعلم والمعرفة، كما أن العلماء بالرغم من كونهم مستقلين عن الإدارة إلا أنهم المصدر الرئيسى الذى رفد الجهاز بكل احتياجاته، كما كانت المدارس والمساجد مصدراً هاماً في إمداد الأجهزة والدواوين الحكومية بما تحتاجه من قوى بشرية مؤهلة.

وفى الوقت نفسه نجد أن الكثيرين من المعلمين والفقهاء الذين اعتمدوا في تعليمهم ومعاشهم على أموال أمدتهم بها الأوقاف، قد اندمجوا كذلك في الأعمال الاقتصادية والأنشطة التجارية، فاشتغل العلماء والفقهاء وطلبة العلم في السوق، وكان وجودهم واضحاً في ساحة النشاط الاقتصادى في المجتمع الإسلامى، إذ عملوا تجاراً وكتبة ومحاسبين وصيارفة وغير ذلك.

وكان العديد من العلماء يقسمون نشاطهم اليومى بين التجارة والتعليم، فيشتغلون بعض الوقت تجاراً في السوق، وفى البعض الآخر منه إما أن يكونوا طلبة يتلقون العلم، أو أن يقوموا هم بالتدريس لغيرهم من الأفراد.

وفي دراسة قامت بها «إيرالابيدوس» عن المجتمع الإسلامى في العصر

---

(١) الدور الاجتماعى للوقف - عبد الملك أحمد السيد - البنك الإسلامى للتنمية جدة ١٤١٥هـ، - ص٢٥٦.

الوسيط بعنوان (المدن الإسلامية في العصور الوسطى المتأخرة) وجدت أنه من بين نموذج استخلصته من تراجم الرجال يمثل ستمائة تاجر في هذا العصر في بعض هذه المدن الإسلامية، ووجدت أن من بين هؤلاء الستمائة تاجر، مائتين وخمسة وعشرين تاجراً كانوا أساتذة في المدارس الجماعية وعلماء شريعة وأئمة للمساجد أو قضاة ومحتسبين، كما وجدت أن فيهم كتاباً للعدل ونظاراً على الأوقاف الخيرية. كما وجدت أن من بينهم أربعة وثمانين تاجراً يعملون بنفس الوقت كمحدثين في المساجد والمدارس الموقوفة، وخمسة عشر تاجراً كانوا يتولون وظيفة قاضى، وستة آخرين عملوا في وظائف الإدارة العليا، كما أن ستة أشخاص عملوا في وظائف الحسبة.

كل ذلك لم يكن ممكناً إلا بفضل ما وفرته الأموال الموقوفة لباقى الطبقات من موارد صرفت عليهم بسخاء في سبيل تعليمهم حسبة لله.

ولذا فإننا نرى أن الصناع والعمال كانت الفرص متاحة لهم لأن يتعلموا ويواصلوا تعليمهم في مختلف مراحل الدراسة معتمدين على المخصصات التى تصرف على الطلبة من الوقف، وبذلك كان المجتمع كله يتعلم وينمو. وقد قرر الفقهاء المسلمون بأن الوقف على المتعلم لا يحرم المتعلم من راتبه أو من وظيفته، واعتبروا أن الوظيفة هى نوع من التعليم واستمرارية له.

* دور الوقف في تحقيق التكافل الاجتماعى[1]:

إن الوقف الإسلامى يحقق نوعاً من التكافل الاجتماعى لم يسبق إليه

---

(١) التكافل الاجتماعى في الشريعة الإسلامية - للمؤلف، ط٢، سنة ١٤١٣هـ، ص١٤٠، ١٤١ - وحول رؤية مستقبلية لنظام الوقف الإسلامى - د. محمد الشحات الجندى. ضمن مجموعة البحوث المقدمة لندوة «إحياء دور الوقف فى الدول الإسلامية» المنعقدة فى بور سعيد من ١١ - ١٣ محرم ١٤١٩هـ - ص٢٥١ - ٢٥٣.

نظام، بل ولم يدانه نظام كذلك. ذلك أن للوقف وظيفة اجتماعية قد تبدو ضرورية في بعض المجتمعات وفى بعض الأحوال والظروف التى تمر بها الأمم، فلقد اقتضت حكمة الله أن يكون الناس مختلفين في الصفات، متباينين في الطاقة والقدرة، وهذا يؤدى بالضرورة إلى أن يكون في المجتمع الغنى والفقير، والقوى والضعيف.

فلذا أمر الشارع الحكيم الغنى بالعناية بالفقير، والقوى بإعانة الضعيف، ولهذا جاءت الحياة في المجتمع المسلم في غاية من التكافل والتراحم والتعاطف، جعلته كالبناء المرصوص يشد بعضه بعضاً.

والمتأمل في طبيعة الوقف، استلهاماً من دلالته التشريعية، ونماذجه التطبيقية، يجد أنه إفراز طبيعى وذاتى لمسؤولية المسلم تجاه مجتمعه، ورسالته في الحياة، وتعايشه مع بنى دينه ووطنه، فالمسلم الحق هو الذى يحيا بأهله وذويه وإخوانه في الدين والوطن، يستشعر آلامهم وآمالهم، ويشاركهم في أتراحهم وأفراحهم.

إن هذا المنحى للوقف، والذى يشع على أوجه الحياة كلها، يبوئه المكانة السامقة في منظومة العطاء الإسلامية التى تعتمد على صريح الخطاب الإسلامى، وعلى عمق الالتزام الدينى، مع تشريعات الزكاة والصدقات والوصايا والهبات، وهى تتضافر سوياً نحو هدف واحد وهو مد مظلة التكافل الاجتماعى لكل أفراد المجتمع الإسلامي.

إن من يسبر أغوار هذا المنهج، ويعى مغزاه، يدرك على الفور أن المجتمع الإسلامي يقوم على أساسين:

الأول: الأساس الذى يرتكز على الاسهامات الفردية، والمشاركة الشعبية، الواعية بمسئولياتها الاجتماعية، والتى طرحت - جانباً - الجشع والأثرة والبخل وغيرها من الآفات الاجتماعية.

الثاني: الأساس الذى ينبنى على دور الدولة، باعتبارها سلطة راشدة تقوم بمهمتها في تطبيق المبادىء والتشريعات الإسلامية، لينهض المجتمع مؤسساً على التضامن والتكافل الاجتماعى.